الفن الانســـــانى

للأستاذ أنور المعـــداوى

(مهداة إلى الفنان الإنسانى محمود تيمور)

الصلة بين الفن والإنسانية صلة لا يحسها إلا الفنان الإنسان ... ولقد قلت مرة — وما زلت أقول — إن الفن إذا لم يستمد وميضه وحرارته من نبضات القلب الإنسانى ، كان وميضه كوميض البرق ، وكانت حرارته كحرارة الحمى ... ! وكل أثر فنى تبدعه العبقرية أو تصوغه القريحة ، لا يترك أثره فى النفس ولا بقاءه على الزمن ، ما لم تلتق ومضة الفكر فيه بخفقة القلب ، ولفتة الذهن بحركة الشعور ، ومنطق العقل بفورة الوجدان ... بشعاع من هنا وشعاع من هناك ، يشق ضوء الفن طريقه إلى فجاج الروح ، وشعاب النفس ، ومسارب العاطفة ، وبغير هذا كله يخبو البريق فى الفن ، وتبهت الصورة ، وتفنى صفات الخلود !

من أعماق النفس وأغوار الحياة ينبع الصدق فى الفن ... ولن يتهيأ الصدق فى الفن مالم يستخدم الفنان كل حواسه فى تذوق الحياة : يرقب ، ويتأمل ، ويهتك الحجب ، وينفذ إلى ما وراء المجهول ؛ فإذا استطاع أن ينقل كل ما يلهب الخيال فيها إلى لوحات من التصوير الفنى ، فهو الفنان ... وإذا استطاع أن ينقل إلى هذه اللوحات كل ما فى القلب الإنسانى من نبض وخفوق ، فهو الفنان الإنسان ... وعلى مدار القوة والضعف فى تلك النبضات ، يفترق العمل الفنى من مثيله فى كل فن من الفنون ...

الفن الإنسانى هو أن يكون الفن انعكاساً صادقاً من الحياة على الشعور ... وأن يكون الشعور مرآة صادقة تلتقى على صفحتها النفس الإنسانية فى صورتها الخالدة ، بكل ما فيها من اشتجار الأهواء والنزعات ... هنا تتحقق المشاركة الوجدانية التى تتمثل فى ذلك التجاوب الروحى بين الفن وصاحبه ، وبين الفن ومتذوقه ، وبين الفن والإنسانية ، بكل مافيها من اختلاف الميول والأذواق .

ولسنا نقصد بهذا إلى أن يسير الفن فى ركاب المجتمع ... كلا ، وإنما ندعو إلى أن ينطلق الفن انطلاقاً يتحرر فيه من كل قيد يفرضه عليه طلاب الشعور المزور والانفعال المصطنع . عندئذ يستطيع الفن أن يتنفس فى أجواء لا يحس فيها مرارة الاختناق ، وعندئذ يلتقط الفن من طريق الحياة — وهو فى ظل الحرية — كل ما يتبقى فيها من رواسب العواطف المتباينة فى النفس الإنسانية .

إن الفنان هو من يعبر عن الحياة فيصدق فى التعبير ... وإلى هنا يكون الفن قد أدى رسالته التصويرية ، وهى رسالة تهدف إلى التصوير الأمين والعرض الصادق ، ولكن هاتين الميزتين قد تهتز لهما فى نفسك عاطفة الإعجاب ، دون أن تهتز لهما مكامن الشعور ... إن الإعجاب بالأثر الفنى شىء والاهتزاز له والتأثر به شىء آخر ؛ وهنا تبرز لنا الناحية الأخرى من رسالة الفن وهى الناحية الإنسانية ، تلك التى يكتمل معها الخلود فى العمل الفنى . إقرأ للقصاص الفرنسى جى دى موباسان أقصوصتين من أقاصيصه هما « الحلية » و « ولد »[1] ، تعجب بالأولى وتهتز من أعماقك للثانية ، ثم قارن بين الأقصوصتين تجد البون شاسعاً بين أثر هذه وتلك فى حساب الشعور . وما أبعد الفارق بين فن يترك أثره فى الذهن ، وفن يترك أثره فى النفس ... إن موباسان فنان مبدع هنا وهناك ، ولكنه فى « الحلية » فنان فحسب ؛ فنان يستلهم قلمه ... أما فى « ولد » فهو فنان وإنسان ؛ إنسان يستلهم قلبه ... !

واقرأ بعد ذلك « رينيه » لشاتوبريان و « رفائيل » للامرتين و « آلام فرتر » لجوته ، تلمس أن نبضات القلب الإنسانى فى هذه القصص الثلاث ، لم تبلغ من القوة والصدق والعمق ما بلغته فى « أدولف » لبينجامان كونستان ؛ ومن هنا كانت « أدولف » فى رأى النقاد أكثرها بقاء على الزمن لأنها أكثرها إنسانية .. ولقد قرأت هذه القصة مرات ، ولا أذكر أنى قرأت غيرها أكثر من مرة ، بل لا أذكر أن قصة تركت فى نفسى من الأثر مثل ما تركت « أدولف » ؛ ذلك لأن الفن إنما يقاس بمقدار أثره فى النفس ومدى صلته بعنف الوجيب فى القلب الإنسانى . وأنت حين تقرأ هذه القصص الثلاث ، تشعر أن كلا منها قد وضعت للجيل الذى عاشت فيه فهى لا تكاد تصلح إلا له ، وأن الفارق بينها وبين « أدولف » هو الفارق بين الفن التصويرى الذى يقف بك عند فترة من الزمن لا يتعداها ، وبين الفن الإنسانى الذى يتخطى حدود الزمان والمكان(*) ولقد بلغ من عمق الصلة بين الفن والإنسانية فى « أدولف » ، أن اكتشف

(١) قام بنقل هاتين الأقصوصتين إلى العربية الأستاذ الزيات فى كتابه « من الأدب الفرنسى » ، ومما يجب الإشارة إليه أن الأقصوصة الأولى قد نقلها إلى العربية أكثر من قلم ، ولكن قلم الأستاذ صاحب الرسالة — فيما أعلم — هو خيرها رقة وأمانة وأصالة

(*) (الرسالة) : هذا رأى نسمعه لأول مرة ، فكان على الكاتب أن يذكر الدليل الذى اعتمد عليه ، والنص الذى استند إليه .

النقاد أن هذه القصة لم تكن إلا تصويراً صادقاً لحياة مؤلفها ، وأن « أدولف » لم يكن في الحقيقة إلا بنجامان كونستان ، وأن « إلينورا » لم تكن إلا السكانية الفرنسية مدام دى ستابل !

« أدولف » هي قصة القلب الإنساني في كل جيل من الأجيال ، يقرؤها كل إنسان فيشعر أنها قد كتبت له ، ويكاد يجد نفسه في كل سطر من سطورها ... وهذا هو الفن الإنساني الذي تتلقاه الإنسانية جديداً على مر الزمن ! ... الفن الذي يأخذ مادته من أعماق النفس ، ونبضات القلب ، وأغوار الحياة .

وعلى ذكر القصص الإنساني أقول إني شاهدت منذ أيام في إحدى دور السينما قصة من القصص النادرة ، تدور حوادثها حول حياة الموسيقار روبرت شومان ... ولن أنسى أن هذه القصة قد هزتني هزاً عميقاً ، لا بموسيقاها ولا بروعة تمثيلها ، ولكن بما حفلت به من لمسات إنسانية نفاذة استطاع كاتبها أن يدفع بها إلى مكامن الشعور في النفس الإنسانية ؛ ولقد خرجت بعد انتهاء العرض وأنا أستعيد في نفسي بعض تلك اللمسات التي حشدها الكاتب في قصته ليصور بها الجانب الإنساني في حياة شومان ... ولعل مشهداً واحداً من مشاهد هذه القصة يقف وحده متفرداً ليترك أثره العميق في النفس والحس ؛ هو ذلك الذي ظهر فيه شومان وزوجته وتلميذه يهيئون طعامهم بأيديهم بعد أن تخلت الطاهية عن خدمتهم .. هنا يقف الثلاثة حيارى أمام دجاجة ! . . لا تقوى نفوسهم الفنانة الشاعرة على ذبحها ؛ تمسك الزوجة بالسكين فتخونها قواها فتدفع بها إلى زوجها ، واضعة ثقتها فيه كرجل لا يرتاع لرؤية الدماء .. ويجمع الموسيقار أشتات شجاعته ، ولكنها تتناثر هنا وهناك فلا يبقى إلا العزم الخائر أمام شبح الجريمة ! . . ولا تجد الزوجة بداً من الاستنجاد بالرجل الآخر ليرد للرجولة كرامتها ، ولكن الرجل الآخر ما يكاد يقترب من الضحية والسكين في يده حتى يرتد ضعيفاً مسلوب الإرادة أكثر إخفاقاً من صاحبه .. ولا تزال السكين حائرة بين أيديهم المرتجفة ، ولا تزال الدجاجة على قيد الحياة ! .. ويهتف روبرت شومان وهو ينظر إلى زوجته وتلميذه ، يهتف من أعماقه : لقد خلقت للعزف لا للذبح ! !

بمثل هذه اللمسات الرائعة ، ترتفع القصة في الغرب إلى آفاق مشرقة من الفن الإنساني .

وإذا ما تركنا الفن الإنساني في القصة إلى الفن الإنساني في التصوير ، تبرز لنا لوحتان فريدتان هما « العذراء والطفل » لرفائيل و« الجيوكوندا » لداڤنشي . وعلى كثرة ما أخرج عباقرة الرسم من لوحات للعذراء والطفل فإن لوحة رفائيل تقف وحدها متفردة ، لا بظلالها وأضوائها وألوانها ، بل بشيء آخر هو قوة الوجه ... المعبر عن الإنسانية في أنبل ملامحها ، وأجل سماتها . إن الريشة التي أبدعت هذه اللوحة ريشة إنسان قبل أن تكون ريشة فنان ؛ إنسان أطلق أسمى مراتب الأمومة في نظرات السيدة العذراء ، وأسمى مراتب النبوة في نظرات السيد المسيح ... ومن هنا شقت لوحة رفائيل طريقها إلى القمة ، بينما وقف غيرها لا يتخطى السفوح ، لأن هذه من صنع المخيلة ، وتلك من صنع الشعور

من هذه الزاوية الإنسانية التي نظر منها الفن إلى رفائيل في « العذراء والطفل » ، ينظر الفن مرة أخرى إلى ليوناردو داڤنشي في « الجيوكوندا » ... هي لوحة تمثل امرأة ، ولكن أية امرأة ؟ ! لقد استطاع داڤنشي الإنسان أن يبعث في عينيها العميقتين نظرات قدسية ، وفي شفتيها الرقيقتين ظل ابتسامة لا ترتسم إلا على شفتي ملك . وفي العينين والشفتين ركز داڤنشي الإنسانية بكل ما فيها من معاني النبل والطهر والبراءة ، ولهذا كانت « الجيوكوندا » تمثل ذلك الجمال الروحي المتصل بالسماء ، بينما كان غيرها يمثل ذلك الجمال المادي المشدود إلى الأرض !

من كل هذه الأمثلة التي قدمتها إليك تستطيع أن تخرج بشيء واحد ، هو أن الفن إذا لم يستمد وميضه وحرارته من نبضات القلب الإنساني ، كان وميضه كوميض البرق ، وكانت حرارته كحرارة الحمى ... !

أنور المعداوي

تولستوى
يظهر في الأسبوع القادم